The Aesthetic of the Structural Deviation In Moufdi Zakaria's Poem Palestine On The Cross – The Phenomenon Of Submission And Delay

الانزياح التركيبي في قصيدة فلسطين على الصليب لمفدي زكريا

ظاهرة التقديم و التأخير أنموذجا.

حامد نوال

جامعة طاهري محمد بشار، الجزائر

Hamed.nawal@yahoo.com

أ. د. محمد بن حمو

جامعة طاهري محمد بشار، الجزائر

benhammoumoh@yahoo.fr

قدم للنشر في: 2018/04/08

قبل للنشر في: 2018/05/19

Abstract:

Moufdi Zakaria's poems are known of great meaning, and beautiful building. He was helped by his different artistic creations, and diverse linguistic deviation. He came out of the perfect ordinary speech, and he break the normal system of performance, and he violated the standard language, by this ,the poet achieved a unique position among the Arab modern poets; The deviation in Moufdi Zakaria's poems was various between:,the substantive deviation wich related to the essence of language (metaphors – similes) and the structural deviation wich concern the departure the normal structural of language system submission and delay- ellipsis- repetition) . This research paper seeks to identify some aspects of structural deviation: submission and delay, in one of Moufdi Zakaria's masterpieces (Palestine on the cross) and statement the aesthetic impact in the poem.

Key words: structural deviation- submission-delay - Moufdi Zakaria- Palestine

الملخص :

تُعرف قصائد مفدي زكريا بجلال المعنى و جمال المبنى، و قد تأتى له ذلك من خلال إبداعاته الفنّيّة المختلفة، و انزياحاته اللّغويّة المتنوعة، التي خرجت عن المثاليات المألوفة في الكلام، و خرقت النّظام العاديّ للأداء، و انتهكت معياريّة اللّغة، وانتقلت بها إلى اللّامعياريّة، و كسرت قيود التّراكيب و حدودها، فحقّقت لصاحبها الفرادة و التّميز، و أعطت نصوصه شاعريّةً جماليةً؛ وقد تنوعت الانزياحات في قصائد شاعر الثّورة الجزائريّة بين الاستبداليّة المتعلقة بجوهر المادة اللّغوية متمثلة في الاستعارات، التشبيهات، المجازات، و الكنايات؛ و الانزياحات التّركيبيّة التي تتعلق بالخروج عن النّظام التّركيبيّ العاديّ للّغة ، و ترتيب مفرداتها و عناصرها، و علاقة ألفاظها بجاراتها التي تشكل معها سياقًا لغويًّا؛ و تمثلها مظاهر التّقديم و التّأخير ، الحذف ، التّكرار، الالتفات، الاعتراض؛ و تسعى هذه الورقة البحثيّة للوقوف على مظهرٍ من مظاهرِ الانزياح التّركيبيّ و هو التّقديم و التّأخير، و تتبع مواضعه، و الكشف عن مواطن الجمال فيه، و بيان كيف يوضح المدلولات الهامشية، و ذلك في إحدى روائع مفدي زكريا القومية (فلسطين على الصليب) .

الكلمات المفتاحية: الانزياح– التركيبي– التقديم – التأخير– مفدي زكريا– فلسطين.

العرض:

حظيت فلسطين – وما تزال– باهتمام العديد من الشّعراء العرب، كونها مهبط الدّيانات السّماويّة، فجادت قرائح الكثيرين منهم بأبهى القصائدِ العموديّة و الحرّة في التغني بفلسطين، و الدّفاع عنها و تأكيد الأمل في خلاصها من أذى العدوانِ الصّهيونيّ الغاشم الذي مارس كلّ أنواع الاضطهاد و الاحتقار على الشّعب الفلسطينيّ المكتوي بنار التّعذيب والتّشريد.

لم يكن الشّعراء الجزائريون بمنأى عن الاهتمام بقضية فلسطين، فقد سخّروا أقلامهم لخدمة الوطن العربيّ ككلّ و فلسطين خصوصًا؛ و من هؤلاءِ الشّعراء شاعرُ الثورة الجزائرية مفدي زكريا –رحمه الله– الذي استطاع أنْ يحقّق لقصائده الفرادة و التّميز، و يكسبها مكانةً مرموقةً في مصاف الشّعر العربيّ، فاتسمت بجلال المعنى و جمال المعنى، من خلال لغته الشّعريّة التي خرقت كلّ ما هو عادي في الكلام، و انتهكت المثاليات المألوف في الأداء، و خرجت عن المعيارية المضبوطة للغة، فأبدع الشّاعر فيها، و تفنن في طرق الانزياح و الانحراف، ليُغرقَ المتلقي في جماليات خطاباته، و يُثيره بالبحث عن المقاصد و المعاني ، و ينأى به عن القراءة السّطحية للنّصوص؛ فقد كانت اللّغة طيّعةً في يد الشّاعر، شكَّلَ بها انزياحاتٍ كثيرةً متنوعةً دلاليًا، أسلوبيًا و تركيبيًا.

لقد آمن مفدي زكريا إيمانًا شديدًا بالوحدة العربيّة و بالامتداد التاريخيّ لهذه الشعوب، بأبعاده العقائديّة و القوميّة والإنسانيّة ، قال: «... و لكن سيجد فيه (الشّعراء النّاس) صلة الرّحم وثقة بعزّ أمجادهم، و تجاوبًا صادقًا مع مشاعر العروبة الزّاحفة في كلّ بلدٍ عربيٍّ يقدر ما لكلمة (عروبة) من عظمة، و جلال... و عسى أن أكون بهذا قد أرضيت ضميري و ثورة بلادي و عروبتي، و أهبت لنجدة ثورة العرب بكلّ مَنْ تيقظ فيه ضمير»[1] جاء هذا القول في مقدمة ديوانه اللّهب المقدس، و فيه يكشف الشاعر عن النزعة القوميّة السائدة في قصائده، و التي يسعى من خلالها إلى تعزيز الصّلة بين العرب، و توطيد رابطة الأخوة بينهم، و العودة بالأمة العربية إلى عزّ أمجادها؛ فالجزائر في نظره جزء لا يتجزأ من الأمّة العربيّة، و أنّ ثورتها هي ثورة العرب في الجزائر.

إنّ ذلك الإيمان بالوحدة العربيّة جعل الشّاعر يدعو إلى الدّفاع عن شعوبها المكافحة من أجل الحريّة؛ و تُعدّ قصيدة (فلسطين على الصّليب) من أروع منجزاته الشّعريّة القوميّة التي نظّمها بمناسبة الذّكرى الثّالثة عشر لتقسيم فلسطين، فهي حوارٌ مفترضٌ بين الشّاعر و فلسطين و العرب؛ تبدو ظاهرة الانزياح بأنواعه جليّة في هذه القصيدة، لذا تسعى هذه الورقة البحثيّة للإجابة عن الإشكالية التّالية: أين نلمس مواضع التّقديم والتّأخير باعتباره مظهرا من مظاهر الانزياح التركيبي؟ و ما مدى مساهمتها في الكشف عن المدلولات الهامشيّة و الأغراض النّفسية للشّاعر؟

الانزياح التّركيبيّ:

يرى النّحاة واللّغويون أنّ النّحو هو أساس الوصول إلى أصل المعنى، يقول عبد القاهر الجرجاني: « و اعلم أنّ ليس النّظم إلّا أنْ تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النّحو، و تعمل على قوانينه و أصوله، و تعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيغ عنها،

[1]- *اللهب المقدس:* ابن تومرت مفدي زكرياء، موفم للنشر، الجزائر ،سنة 2007م، ص: 07.

و تحفظ الرّسوم التي رسمت لك، فلا تخلّ بشيءٍ منها»[1]. فما النّظم عنده إلاّ إتباع المتكلم لقوانين علم النّحو و مبادئه، وتطبيقه لقواعده و مناهجه دون الحيد عنها؛ فجودة النّظم و فساده عنده متعلقة بمعاني النّحو و أحكامه، لأنّ البناء النّحويّ يحكم النّصّ، و يساعد على فهمه و تحليله.

يتمتع الشاعر بنوعٍ من الحرّية في التّعامل مع اللّغة، إذ يصح له ما لا يصح للناثر، فهو يستطيع التّصرف في قواعد النّظم و التّركيب وفق ما يخدم حالته الشّعريّة، فيخرج على النّظام اللّغويّ العاديّ، و يخرق و ينتهك السّائد المألوف فيه عبر الانزياحات التّركيبيّة المتمثلة في: التّقديم و التّأخير، الحذف، التّكرار، الالتفات، الاعتراض و غيرها.

التّقديم و التّأخير:

هو باب من أبواب شجاعة العربيّة، تخالف فيه عناصر التّركيب ترتيبها الأصليّ في السّياق، فيتقدّم ما الأصل فيه التّأخير، ويتأخّر ما الأصل فيه التّقديم؛ و تعدّ ظاهرة التّقديم والتّأخير عنصرا هامًا في إثراء اللّغة الشّعريّة، و جعلها أكثر جماليةً للوصل إلى الدّلالة الخفيّة، و جعل القارئ يقبل على النّصّ الشّعريّ بشغفٍ، فيفتتن بذلك التّركيب الذي يقوم على الاختلاف و المغايرة، والجدّة في البناء و الصّور.

لقد أدرك عبد القاهر الجرجاني أهمية التّقديم و التّأخير في اللّغة العربيّة فجعل له بابًا مستقلًا في كتابه دلائل الإعجاز؛ يقول فيه:«هو بابٌ كثيرُ الفوائدِ، جمّ المحاسنِ، واسع التّصرفِ، بعيد الغاية، لا يزال يفترّ لك عن بديعة، و يفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه، و يلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك، أن قدم فيه شيء، وحوّل اللفظ عن مكان إلى مكان».[2] فهو يرى أنّ التّقديم و التّأخير لا يكون عبثًا إنّما له دواعٍ و أغراضٌ، تساهم في إثراء اللّغة، وترقي أساليبها دلالةً و بيانًا، كما أنّه يلبس العبارة دلالاتٍ و فوائدَ تجعلها عبارةً راقيةً ذات رونقٍ و جمال، فهو إذًا نظامٌ خاصٌّ جماليٌّ، يهدف إلى تحقيق السّمة الشّعريّة التي يحرص الشّاعر عليها.

و مهما يكن من أمرٍ فإنّ الانزياحات التّركيبيّة في الفنّ الشّعريّ تتمثل أكثر شيء في التّقديم و التّأخير، و المعروف أنّ لكلّ لغةٍ بنياتٍ نحويةً عامّةً و مطردةً، و عليها يسير الكلام؛ و الواضح أنّ التّقديم و التّأخير وثيقُ الصّلة بقواعدِ النّحو حتى إنّ جان كوهين سمّى الانزياح النّابع من التّقديم و التّأخير بالانزياح النّحويّ.[3]

و التّقديم و التّأخير و إنْ كان يحمل أغراضًا بلاغيّةً يسعى المتكلم للتّعبير عنها فهو زيادة على ذلك – عند الشّاعر– حفاظ على الموسيقى الدّاخليّة و الخارجيّة للنّصّ الشّعريّ، يقول محمد حماسة عبد اللطيف في ذلك:« فالتّركيب الشّعري أحوج إلى التّقديم والتّأخير من غيره، لما يقتضيه ضبط الوزن و إحكام القافية فضلا عما يرغب إليه الشّاعر أحيانا من إثارة معانٍ معينة

[1]- *دلائل الإعجاز* :الجرجاني عبد القاهر ، دط، بيروت، 2003م،ص: 128.

[2]- م، ن، ص: 106.

[3]- ينظر: *الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية*: ويس محمد، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، سنة 2005م،ص:122.

بتقديم بعض الكلام وتأخير بعضه الآخر».[1] فالشّاعر أكثر المتكلمين احتياجا لاستعمال التّقديم و التّأخير في نصوصه، ليحافظ على السّمة الشّعريّة فيها و هي ضبط الوزن و القافية إذ لا يكون الشّعر شعرًا إلّا بهما فهو الكلام الموزون المقفى.

- **التقديم و التأخير في الإسناد الاسميّ:**

1) تقديم المبتدأ على الخبر (الفعل):

التّركيب النّحويّ في الإسناد الاسميّ يقتضي تقديم المسند إليه على المسند, ولكن إذا كان المسند فعلا فالأصل أنْ يتقدم على المسند إليه، أو بتعبيرٍ آخرَ يتقدم الفعل على الفاعل, فإنْ تقدم المسند إليه على الفعل نُظر في سبب ذلك، أو بتعبير الكوفيين نظر في سبب تقديم الفاعل على الفعل.[2]

و يحمل تقديم المسند إليه على الفعل معانٍ بلاغية مختلفة كالتّخصيص أو الحصر، و تعجيل بالمسرة أو المساءة، و إظهار التّعظيم أو التّحقير و غيرها.

و يتجلى تقديم المبتدإ على الخبر في قول الشّاعر: [3]

فَلاَ الدَّمْعُ يَدْفَعُ خَطْبِي الرَّهِيبَ وَ لاَ دَعَوَاتٌ وَ رُهْبَانِيَه.

أخّر الشّاعر المسند (يدفع) وقدّم المسند إليه (الدّمع) لأنّه سبق بحرف نفي، فكان المراد نفي الدّفع (الحدث) عن الدّمع (المسند إليه) و الدّعوات و الرّهبان، و إثباته لغيره، و في ذلك دعوةٌ لاستفاقة العرب و استنهاضِ الهمم و الحثّ على الثّورة.

و من تقديم المبتدإ أيضا قول الشّاعر[4]:

هُو الشّعْبُ لَا السَّادَةُ المْتْرَفُون يُحَقِقُ لِلنَّصْرِ أَحْلَامِيَه

فقدّم الشّاعر المسند إليه (هو الشّعب) على المسند (يحقّق) للتّخصيص و الحصر فهو يؤكد أنّ تحقيق النّصر سيكون بالشّعب فقط دون غيره لذا قدّم و أخّر، و استعمل الضّمير المنفصل و النّفي (لا السّادة).

2) تقديم الخبر على المبتدأ:

الأصل في المبتدأ أنْ يأتيَ متقدمًا على الخبر، و في الخبر أنْ يلي المبتدأَ رتبةً و قد يتقدم الخبر، و يتأخر المبتدأ لأغراضٍ[5] بلاغيّةٍ أو تركيبيّةٍ، فتتكون جملة مخالفة للأصل المفترض، ينزاح فيها الشّاعر عن المعياريّة المفروضة؛ يكون تقديم الخبر عن المبتدإ جوازا و وجوبا؛ و من جواز تقديم الخبر في القصيدة قول الشّاعر:[6]

---

[1]- *لغة الشعر دراسة في الضرورة الشعرية:* حماسة محمد عبد اللطيف، دار الشروق ،بيروت،1996م،ص: 290.

[2]- ينظر: معاني النحو: السامرائي فاضل صالح، دار الفكر، ط1، عمان ، 2000م، ج1، ص:158.

[3]- *اللهب المقدس:* ابن تومرت مفدي زكريا،ص:283.

[4]- م، ن، ص: 284.

[5]- ينظر: *الفوائد الضيائية:* الجامي عبد الرحمن، مكتبة البشرى، ط1، باكستان ، 2011م، ص:104.

[6]- *اللهب المقدس:* ابن تومرت مفدي زكريا، ص:287.

غَدَوْتُ لثَوْرَتِهَا شَاعِرًا مِنَ النَّارِ و النُّورِ أَلْحَانِيَه

فقدّم الشّاعر الخبر (من النّار و النّور) على المبتدإ المعرّف بالإضافة (ألحانيه) لافتخاره بقوة ألحانه و شعره الثّوريّ السّاخط على العدو الصّهيونيّ، فهو كالنّار لهيبًا تلقفُ ما في طريقها، لكنّه نورٌ في كشف ظلامِ الاستعمار الدّامسِ، و أملٌ في الحرّية المنشودةِ, فقد قدّم الخبر لاهتمامه و عنايته به، زيادةً على الحفاظ على الوزن و القافية.

و من أمثلة ذلك أيضا قوله:[1]

وَ مِنْ أَرْضِنَا نُقْطَةُ الانْطِلاَقِ وَ ثَوْرَتُنَا حَجَرُ الزَّاوِيَه

فقدّم الشّاعر الخبر شبه الجملة (من أرضنا) على المبتدإ-المعرّف بالإضافة- (نقطة الانطلاق) ليؤكدَ على مساندة الجزائر ومآزرتها لفلسطين في محنتها, بل أراد أنْ يخصّ الجزائر بأنْ تكونَ نقطةَ انطلاق ثورة فلسطين من أجل الحرّية دون سواها.

لا يجوز تأخير الخبر إذا كان المبتدأ نكرةً لأنَّ الخبر مع التّأخير و الحالة هذه يوهم بأنّه نعتٌ لأنّ حاجة النّكرة إلى النّعت ليخصصَها أقوى من حاجتها إلى الخبر.[2] فكان الحلّ هو أن يتقدّم الخبر لئلا يوقع تأخيرُه لبسًا ظاهرًا، و التّقديم إنّما هو لرفعِ لبسِ الخبرِ بالصفة،[3] من ذلك قال الشّاعر:[4]

وَ مَنْ لَيْسَ يَهتَزُّ فِيْهِ ضَمِيْرٌ وَ لا فِي حَوَانَيْهِ إِنْسَانِيَّه

وَ فِي نَكْبَةِ العَرَبِ مَوْعِظَةٌ مَدَى الدَّهْرِ لِلْمُهَجِ الوَاعِيَّه

فقدّم الخبر (في حوانيه-في نكبة العرب) الجار و المجرور على المبتدإ النّكرة على التوالي(إنسانيه- موعظة).

يستحق الخبر التّقدّم على المبتدأ لحالة الصّدارة في الكلام كالاستفهام؛[5]و من أمثلة الخبر الذي له الصّدارة في القصيدة قول الشّاعر:[6]

وَ قَالَ اِبْنُ يَعْرِبِ لما تَيَقَّـ ـظَ لَمْ أَدْرِ –مِنْ سُكْرَتِي- مَاهِيّه؟

وَ لَمْ أَتَفَطَّنْ لِتَالُوثِهَا وَ لَمْ أَدْرِ – مِنْ غَفْوَتِي- مَاهِيّه؟

فجملة (ما هي؟) جملة اسمية تقدّم فيها الخبر لأنّه اسمُ استفهام يستحق الصّدارة.

فما : اسم مبني على السّكون في محل رفع خبر مقدم. (هي): ضمير منفصل مبني في محل رفع مبتدأ مؤخر.

---

[1]- م، ن، ص:287.

[2]- ينظر: *شرح الأشموني على ألفية ابن مالك:* الأشموني ،تح محمد محي الدين ،دار الكتاب العربي، بيروت، سنة *1955م*، ج1, ص: 100.

[3]- *ينظر: الكواكب الدرية: محمد بن أحمد بن عبد الباري الأهدل، مؤسسة الكتب الثقافية، ط1، بيروت ، 1990م، ج1،ص:191.*

[4]- *اللهب المقدس:* ابن تومرت مفدي زكريا، ص: 280- 287 بتصرف.

[5]- *ينظر: شرح ابن الناظم على ألفية ابن مالك: ابن الناظم بدر الدين بن مالك، تح محمد باسل، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت ، 2000م، : 83.*

[6]- *اللهب المقدس:* ابن تومرت مفدي زكريا ،ص:284.

3) تقديم خبر كان على اسمها:

الأصل في ترتيب عناصر الجملة التي تدخل عليها الأفعالُ النّاسخةُ البدءُ بالفعل النّاقص، فالاسم فالخبر، و قد يَترك خبر الفعل النّاقص مكانه الأصليّ، فيتوسط بين الفعل النّاسخ و الاسم ، وقد يتصدر الجملة، وقد جوّز النّحاة أنْ يتوسّط الخبر بين الفعل و الاسم, و لا يَمنعُ من ذلك تساويهما في التّعريفِ و التّنكير.[1]

قال ابن مالك :« و توسيط أخبارها كلّها جائزٌ, ما لم يمنع مانعٌ أو موجبٌ»[2] فهو يجيز تقدم أخبار الأفعال النّاقصة كلّها (كان و أخواتها) إنْ لم يوجد في الكلام ما يمنع التّقديم أو يوجب التّأخير؛ و قد علل ابن الأنباري جواز تقديم أخبارها على أسمائها بأنّ أخبارَهَا تشبه المفعولَ، و أسماءها تشبه الفاعلَ، فكما يجوز تقديم المفعول على الفاعل، فإنّه يجوز أيضا تقديم أخبارها على أسمائها.[3]

و يتجلى تقديم خبر كان على اسمها في قول الشّاعر:[4]

فَلَوْ كَانَ لِي أَمْرُ تَدْبِيرِهَا لَمَا اِحْتَرْتُ فِي أَمْرِهَا ثَانِيَه

فقدّم الشّاعر خبر كان شبه الجملة(لي) على اسمها المعرفة (أمر تدبيرها) و التّقدير: فلو كان أمر تدبيرها لي. فانتهك الشّاعر هذه المعياريّة في التّرتيب، و عدل عن المألوفِ، في حوارٍ متخيلٍ لفلسطين، و هي تتمنى لو كانت ملكيةُ التّدبيرِ خاصةً لها, لتستطيع الخروج من محنتها دون حيرة في أمرها، فوقع التّقديم للاهتمام بالخبر.

أمّا في قوله:[5]

لَقَدْ كَانَ لِي سَبَبٌ لِلْبَقَا فَقَطَّعَ قَومِي أَسْبَابِيَه

فتقدّم خبر كان شبه الجملة (لي) وجوبًا لأنّ اسمها نكرةٌ (سبب) و لا مسوغ للابتداء بها إلّا تقديم الخبر، و لأنّ المبتدأ النّكرة إذا تأخّر عنه خبره الجملة أو شبه الجملة، فقد يتوهم السّامع أنّ المتأخر صفةٌ لا خبر.[6]

- **التقديم و التأخير في الإسناد الفعليّ:**

1) تقديم المفعول به على الفاعل:

---

[1]- ينظر: *شرح اللمحة البدرية:* هادي نهر ، *دار اليازوري، عمان، 2007م*، ج2, ص: 14.

[2]- *تسهيل الفوائد و تكميل المقاصد:* ابن مالك محمد جمال الدين ، *المطبعة الميرية، السعودية،1319هـ، ص: 19.*

[3]- ينظر: *أسرار العربية:* الأنباري أبي البركات ، *تح محمد بهجت البيطار، دار الرقي، دط ، دمشق* ،ص:138.

[4]- *اللهب المقدس:* ابن تومرت مفدي زكريا، ص:283.

[5]- م،ن،ص:281.

[6]- ينظر: *النحو الوافي:* عباس حسن,دار المعارف، ط3،مصر ، 1974م، ج1, ص:501.

الأصل في المفعول به أنْ يتأخّر عن الفعل والفاعل, فيذكر بعدهما لأنّه فضلة في التّركيب الإسناديّ، و الأصل في الفاعل أن يلي عامله، و قد يتأخّر فيتقدّم عليه المفعول به؛[1] و يكون ذلك وجوبًا في حالاتٍ منها: إذا كان المفعول به ضميرًا و جاء الفاعل اسمًا ظاهرًا, إذ لو قُدّم الفاعل لانفصل الضّمير مع إمكانية اتصاله، و هذا لا يجوز نحو قول الشّاعر:[2]

وَ أَلْقَى بِكِ الدَّهْرُ شِذَاذَهُ وَ مَنْ لَمْ تُؤَدِّبْهُ أَلْمَانِيَه.

وَ بِالمالِ تُغْدِقُهُ الصّدَقَاتُ مَضَتْ فِيْكِ بَائِعَةً شَارِيَه.

فقدّم الشّاعر المفعول به ضمير الغائب المفرد في(تؤدبه- تغدقه) على الفاعل وعلى التّوالي(ألمانيه- الصدقات) لكي لا ينفصل الضّمير(الهاء).

و في قوله: [3]

فَلَمْ تُجِدْ فِي صَدِّهَا وَ لَمْ يُفِدْنِي فِي القَضَا مَالِيَه.

تَيَقَّظَ فِيّ الدَّمُ العَرَبِيُّ وَ طَهَّـرَنِي اليَوْمَ إِيمَانِيَه.

فَإِنَّ العُرُوبَةُ تَرْبَأُ بِي وَ يَنْهَانِي اليَومَ قُـرْآنِيَه.

تأخّر الفاعل و تقّدم المفعول به في أعجاز هذه الأبيات, لأنّ المفعول به جاء ضميرَ متكلمٍ (الياء) في (يفدني- طهّرني- ينهاني) و جاء الفاعل اسمًا ظاهرًا وهو على التوالي(ماليه- إيمانيه- قرآنيه).

إنّ هذه الأبيات وغيرها، مما تقدم به المفعول به وجوبًا لأنّه ضمير متصل بالفعل، لابد و أنْ تحمل معها دلالة تختلف عن دلالة المفعول به المتأخّر عن الفاعل, و يبدو أنّ المفعول به في هذه الأبيات يُشكل محورًا يدور حولَه المعنى, مع ما يحمله تأخير الفاعل من تشويقٍ يجذبُ المتلقي إلى معرفتِه, وهي مع ذلك واجبة التّقديم انسجامًا مع القاعدة النّحويّة؛ فالتّقديم والتّأخير كما ذكر سيبويه وغيره من العلماء لا يأتي إلا و هم يحاولون به معنى من المعاني.

يجيز الاستعمال اللّغويّ تقديم المفعول به –اسمًا ظاهرًا- على الفاعل على نية التّأخير, وهو ما قام به شاعر الثّورة الجزائرية, فقد كانت اللّغة طيّعة في يده صنع بها ما شاء، و كيفما شاء، فكسر روتينها، و قضى على رتابتها ليعبر عن الأسى والألم الذي يشعر به بسبب معاناة فلسطين؛ فقدّم المفعول به و أخّر الفاعل دون قاعدةٍ توجب تقديم ذلك أو تأخير هذا في قوله:[4]

وَيَسْلِبُنِـي عِـزَّتِي غَـاصِـبِي وتَنْـهَـبُ دَارِي قُطَّاعِـيَه

[1]- ينظر: متن القطر: الأنصاري بن هشام ، *تص أبو الحسن باوزير، دار الوطن، ط1، الرياض ، سنة 1999م*، ص:21.

[2]- *اللهب المقدس:* ابن تومرت مفدي زكريا ،ص:280- بتصرف.

[3]- م،ن، ص:284-286 ،بتصرف.

[4]- م،ن، ص:284-286 ،بتصرف.

وَ فَـوَّضْـتُ أَمْرِي للحَاكِمِين فَضَيَّعَ قُدْسِي حُكَامِيَه

تَخَاذَلْتُ وَانْهَارَ مِنِّي الضَّمِيرُ فَضَيَّعَ أَرْضِي خِذْلاَنِيَه

وَ أَهْمَلْتُ قُدْسِي نَهْبَ الذِّئَابِ فَأَلْبَسَنِي الخِزْيَ إِهْمَالِيَه

فالشّاعر يتحدث بلسان العرب متحسرًا، وقد أولى المفعولات كبير العناية والاهتمام فقدّمها عن الفاعل و هي (القدس والأرض الضائعان- الخزي الملبوس-العزّة المسلوبة- الدار المنهوبة) و أخّر الفاعل على التوالي (حكاميه- خذلانيه-إهماليه- غاصبي-قطاعيه) تشويقًا له، و تبيانًا لسبب مأساة فلسطين، فسبب المعاناة في نظر الشّاعر هو الحكام و تخاذل العرب وإهمالهم، ليجد ذلك الغاصب- العدو الصهيونيّ- و كلّ من سانده راحته في النّهب و السّلب و القتل.

ذهب ابن عقيل إلى جواز تقديم المفعول به على الفاعل إذا وجدت قرينة تبين الفاعل من المفعول[1]، و قد تكون القرينة الدّالة على الفاعل معنويّة أو لفظيّة. و القرينة في الأمثلة الأخيرة السّابقة كلّها معنويّة لأنّ الحركات الإعرابية في المفعولات السّابقة و الفاعلات مقدرةً غير ظاهرةٍ، و لا وجودَ للضّمائر العائدة، إنّما يفهم المعنى من سياق الحال، باستثناء البيت الثالث الذي كانت به القرينة لفظية، فالحركة الإعرابية للمفعول الثاني للفعل ألبس واضحة (الخِزيَ) كما جاء مفعوله الأول ضميرا متصلا.

ودلّت القرينة المعنوية و كذا اللّفظية (الحركة الإعرابيّة للفاعل) على التّقديم و التّأخير في قوله:[2]

يُهَدِّدُ أَمْنِي ثُعْبَانُهُ وَ تَقْضِمُ أَفْعَاهُ أَحْشَائِيَه

فقدّم المفعول به (أمني) على الفاعل (ثعبانه) لاهتمامه بالمفعول به و تشويقا للفاعل و الترتيب الأصلي : يهدد ثعبانه أمني.

- **التّقديم و التّأخير في تركيب شبه الجملة:**

الأصل في شبه الجملة التي تتكون من الجار والمجرور أو من الظرف و المضاف إليه أنْ تلي الرّكنين الأساسين للجملة (الفعل والفاعل/المبتدأ والخبر) لكنها تتمتع بحرّية كبيرة في الانتقال من موضعها الأصلي، فقد تتقدمهما و قد تتوسط بينهما.

1- تقديم الجار والمجرور:

1) تقديم الجار والمجرور على الخبر:

يأتي الجار و المجرور في الكلام لإتمام معنى الجملة، بما يضيفانه من معانٍ جديدة للفعل أو ما يشبهه، و تتمثل هذه الإضافة في تحديد زمان الفعل –أو ما يشبهه- أو مكانه أو وسيلته أو غيرها من المعاني الإضافية، التي تستفاد من الجار والمجرور

[1]- ينظر: شرح ابن عقيل: ابن عقيل بهاء الدين، دار التراث، ط 20، القاهرة، سنة 1980م، ج 2،ص: 100.

[2]- *اللهب المقدس*: ابن تومرت مفدي زكريا، ص:286.

في الجملة، و ربط هذه المعاني بالفعل أو ما يشبهه وهو المقصود بتعلق الجار والمجرور بالفعل أو ما يشبهه، السّابق له في الكلام، لكن قد ينزاح الشّاعر عن هذا التّركيب العاديّ، فيقدّم الجار و المجرور على متعلقه لغرض[1] في نفسه، أو رغبة منه في التّعبير عن حالة نفسية مثلا.

ففي قول الشاعر:[2]

وَ يَا لَكَ مِنْ حَرَمٍ آمِنٍ جِيَاعُ ابْنِ آوى بِهَا عَاوِيَه

وقع الانزياح في عجز البيت في قوله (جياع ابن آوى بها عاوية) هذا في البنية السّطحيّة الظاهرة أمّا البنية العميقة للتّركيب على الشكل التالي: جياع ابن آوى عاوية بها. و قد انزاح الشاعر على هذا التّركيب العاديّ لأن اهتمامه كان منصبًا على مكان العواء، و هو فلسطين التي يتحسر عليها كونها أصبحت مرتعًا لبنات آوى، زيادة على الحفاظ على الإيقاع الموسيقي للقصيدة، و احترامًا للقافية؛ و اختار الشّاعر ابن آوى من بين الحيوانات المفترسة لأنّه معروف بالمفترس الثّانوي الذي يأكل بقايا الحيوانات الأخرى، ليؤكد قوله: (ومن لم تؤدبه ألمانيه) وفي ذلك احتقار للعدو الصّهيونيّ.

كما انزاح الشّاعر عن الخطاب العاديّ في قوله:[3]

فَأَصْبَحْتُ أُرْسَفُ فِي مِحْنَتِي وَ قَومِي عَنْ مِحْنَتِي لاهِيَه

فقدم الجار و المجرور (عن محنتي) عن الخبر (لاهية) لإظهار الاهتمام بالمقدم الذي يريد تأكيده من خلال التكرار؛ ليوضح حالة المعاناة (محنة) و الأسى الذي تتجرّعه فلسطين- في قالب تشخيصي- و العرب (قومي) في غفلة، أو لاهية عنها، وجاء التّقديم أيضا مراعاةً للوزن، و حفاظًا على القافية.

2) تقديم الجار و المجرور على خبر النّاسخ:

تقدّم الجار والمجرور على خبر النّاسخ في موضع واحد في القصيدة و هو قول الشّاعر:[4]

غَدَوْتُ لِثَورَتِهَا شَاعِرًا مِنَ النَّارِ وَ النُّورِ أَلْحَانِيَه

غدوت في صدر البيت بمعنى صرت، فهي من أخوات كان التي تبقي الأول مرفوعًا و يسمّى اسمها و تنصب الثّاني و يسمّى خبرها؛ وقد قدّم الشّاعر الجار و المجرور على خبر غدوت في البنية السّطحية الظاهرة (غدوت لثورتها شاعرا) أمّا في البنيّة العميقة فيكون التّرتيب على الشّكل التّالي (غدوت شاعرا لثورتها)، فقدم الجار و المجرور (لثورتها) لغرض الفخر و الاعتزاز بثورة الجزائر

[1]- ينظر: معاني النحو: السامرائي، ج3،ص:105.

[2]- *اللهب المقدس:* ابن تومرت مفدي زكريا،ص:281.

[3]- م، ن، ص:281.

[4]- م، ن، ص:287.

التي اعتبرها الشّاعر دالّة على الوجود الإلهي(فآمنت بالرحمن في الثّورة الكبرى)، و لأنّ هذا الفخر لا يتأتى بالتّرتيب العاديّ للجملة.

3) تقديم الجار و المجرور على الفعل:

يظهر هذا النّوع من التّقديم و التّأخير في قول الشّاعر:[1]

وَ بِالمالِ تُغْدِقُهُ الصَّدَقَاتُ مَضَتْ فِيْكِ بَائِعَةً شَارِيَه

فقدّم الشّاعر شبه الجملة الجار والمجرور(بالمال) على الفعل (تغدقه) كما قدّم الجار و المجرور(فيك) على اسم الفاعل- الذي يعمل عمل الفعل- (بائعة شارية) فجاء التّقديم في الشّطر الأول لاهتمام الشّاعر و عنايته بالمال الذي تتصدق به ألمانيا على العدو الصّهيونيّ، وفي ذلك احتقار له فهو يعيش على صدقات الغير؛ أمّا في الشّطر الثّاني فكان التّقديم و التّأخير تحسرًا على فلسطين(فيك)، و حفاظًا على الوزن و القافية.

و قد تضمنت القصيدة نماذجَ أخرى من هذا التّقديم والتّأخير منها على سبيل المثال لا الحصر قول الشّاعر المتخيل لفلسطين[2]:

وَ فِي سُكْرَةٍ ضَيَّعُوا عِزَّتِي وَ لَمْ يُغْنِ عَنِّي سُلْطَانِيَه

فقدّم الشّاعر الجار والمجرور(في سكرة) على الفعل(ضيعوا) لأنّ اهتمامه – وحسرته- كان مركزًا على غفلة العرب و سكرتهم التي كانت وراء ضياع عزّة فلسطين، و سببًا في معاناتها.

أمّا في قوله[3]:

فِلِسْطِينُ فِي أَرْضِنَا بَعْثُهَا وَ مِنْ أَرْضِنَا تَزْحَفُ الحَامِيَه

فقدّم الجار و المجرور(من أرضنا) على الفعل (تزحف) كونه يعتزّ و يفتخر ببطولات الشّعب الجزائريّ في ثورته (كنت الجزائر في زحفها)، و يعزز بذلك أن نصرة فلسطين و الذود عنها ستنطلق من الجزائر زاحفة نحو فلسطين.

4) تقديم الجار و المجرور على الفاعل:

يتجلى تقديم الجار والمجرور في القصيدة في قول الشّاعر:[4]

وَ أَلْقَى بِكِ الدَّهْرُ شِذَاذَهُ وَ مَنْ لَمْ تُؤَدِّبْهُ أَلْمَانِيَه

وَ صَبَّ بِكِ الغَرْبُ أَقْذَارَهُ وَ رِجْسَ نِفَايَاتِهِ البَاقِيَه

[1]- م، ن، ص:280.

[2]- م، ن، ص:281.

[3]- م، ن،ص: 287.

[4]- م،ن،ص: 280.

فقدّم الجار و المجرور (بك- بك) في البيتين على الفاعل على التّوالي(الدّهر— الغرب) ويحمل هذا التّقديم دلالة تختلف عن دلالة الفاعل المقدّم عن الجار و المجرور، فيبدو أنّ الجار و المجرور يشكل محورا يدور حوله المعنى، فالإلقاء و الصبّ لم يكن في مكان آخر، إنّما كان خصيصا في فلسطين دون غيرها و على ذلك يتحسر الشّاعر؛ مع ما يحمله تأخير المفعول من تحقير للاحتلال الصهيوني الذي نعته الشاعر بأشنع الصفات (شذاذ- لم تؤدبه ألمانية- أقدار- رجس نفايات)، فجرّده الشّاعر من صفة الإنسانيّة، ليجعله شيئا ماديا خالٍ من الشّخصية البشرية.

و من أمثلة تقديم الجار والمجرور على الفاعل أيضا قوله على لسان العرب:[1]

تَخَاذَلْتُ وُانْهَارَ مِنِّي الضَّمِيرُ فَضَيَّعَ أَرْضِي خِذْلانِيَه

تَيَقَّــظَ فِــيَّ الـدَّمُ العَـرَبِــيُّ وَ طَهَّرَنِي اليَوْمَ إِيمَانِيَه

فقدّم الشّاعر الجار والمجرور في البيتين أعلاه (مني- في) على الفاعل وهو على التوالي (الضّمير —الدّم العربيّ) و الأصل: انهار الضميرُ منّي- تيقظ الدّمُ العربيّ فيّ. و هذا لعنايته و اهتمامه بالمقدّم، ففي البيت الأول يعبر عن أسفه و حزنه لانهيار الضّمير منه، و لأنّ تقاعسه كان سببا في ضياع الأرض و المأساة الواقعة؛ لكن استفاق من غفلته فانتقل من الأسف و الحسرة إلى مقام يشبه الافتخار و الفرحة بيقظة الدّم العربيّ و القوميّة فيه.

ومن الأمثلة المشابهة لما سبق، قوله أيضا:[2]

لَئِنْ نَامَ مِنْ قَبْلُ فِيَّ الضّمِيرُ وَ أُخْلِدَ لِلْمَوْتِ إِحْسَاسِيَه

يبدو في هذا المثال تأخّر الفاعل (الضّمير) عن فعله كثيرا إذْ فصلت بينهما شبه الجملة (من قبل فيّ)، و كان التّأخير تحسرًا على ما كان عليه الضّمير العربيّ سابقا، و رغبة من المتكلم في تحسين الوضع.

5) تقديم الجار والمجرور على المفعول به:

مواضيع تقديم الجار و المجرور على المفعول به كثيرة في القصيدة، لأنّ المفعول به فضلة يمكن تجاوزه من ذلك قوله:[3]

وَ يَا لَكِ مِنْ قِبْلَةٍ كَدَّسُوا بِمِحْرَابِهَا الجِيَّفَ البَالِيَه

قدّم الشّاعر الجار والمجرور (بمحرابها) على المفعول به (الجيف) لعنايته بالمقدّم، فهو يتحسر و يتأسف على انتهاك المستعمر الغاشم لحرمات الإسلام، و محاولة القضاء عليها باتخاذه المساجد مأوى لقتل المسلمين.

[1]- م،ن، ص: 285-286 بتصرف.

[2]- م، ن، ص: 286.

[3]- م، ن، ص: 281.

وليعبر الشّاعر عن شناعة المجازر و فظاعة الجرائم المرتكبة في فلسطين قدّم الجار والمجرور (لجزارها) على المفعول به (الماشية)، و في ذلك تعجيل للمساءة وهي الذبح و القتل الذي تتعرض له فلسطين على يد العدو الصّهيونيّ الغاشم، فقال:[1]

وَ رُحْتُ أُبَاعُ وَ أُشْرَى كَمَا تُبَاعُ لِجَزَارِهَا الماشِيَه

فإبداع الشّاعر في الخيال رسم لنا صورة المأساة التي تعانيها فلسطين، بعد أنْ باعها العرب للعدو الإسرائيليّ، و جسّدها في قالب مرئيٍ ملموسٍ، و هو ما تعانيه الماشية على يد الجزار الذي بيعت له من ذبحٍ و قتلٍ و تقطيعٍ، فيا لها من صورة موجعة. و يا له من ألم فظيع.

أمّا في قوله:[2]

وَ كُنْتُ الجَزَائِرَ فِي زَحْفِهَا وَ حَقَّقْتُ بِالشَّعْبِ آمَالِيَه

وَ أَلْهَبْتُهَا فَوْقَ أَرْضِ الحِمَى وَ حَرَّرْتُ بِالشَّعْبِ أَوطَانِيَه

فقدّم الشّاعر الجار و المجرور (بالشّعب- بالشّعب) على المفعول به (آماليه- أوطانيه) لتخصيص المقدّم بالفعل، فتحقيق الآمال، و تحرير الأوطان، سيكون بالشّعب فقط لا بغيرهم.

و من مواضع تقديم الجار و المجرور على المفعول به أيضا قول الشّاعر:[3]

وَ نَادَيْتُ بِالدَّمِ عَدْلَ السَّمَا وَ قَـدَّمْتُ لِلْنَّـارِ قُرْبَانِيَه

مَـصِيْـرُكِ آخِـدُهُ بِـيَـدِي وَ أَدْعُوا إِلَى الثَّأْرِ إِخْوَانِيَه

فِلِسْطِينُ لاَ تَجْزَعِي فَالسَّمَا سَتُسْنِدُ لِلْنَّصْرِ إِخْلاصِيَه

فقدّم الشّاعر الجار والمجرور (بالدّم- للنّار- إلى الثّأر- للنّصر) على المفعول به على التّوالي (عدل السّما- قربانيه- إخوانيه- إخلاصيه) و ذلك تعجيلا للمسرة فالجارات و المجرورات المقدّمة توحي بالثّورة المأمولة، التي يتمناها الشّاعر والعرب كافة، لتنير ظلام الاستعمار الدّامس، و تزهر حرّيةً و استقلالاً لذا قدم الجار والمجرور.

و يستفز الشّاعر النّخوة العربيّة محاولا إيقاظها من سباتها، لتنفض عنها غبار الاستعمار الصّهيونيّ الغاشم، بذكره لرموزٍ تاريخيّة استطاعت أنْ تكسب صفة الخلود ببطولاتها كخالد بن الوليد، و سعد بن أبي وقاص، و صلاح الدين الأيوبي، وهم أبطال عرب قادوا معارك كبيرة، توجت بالانتصار ضدّ الصّليبيين كمعركة حطّين و أنطاكيا و القادسية؛ و لعناية الشّاعر واهتمامه بهذه الرموز، و افتخاره بأمجاد العرب قدّمها على المفعول في قوله:[4]

[1]- م، ن، ص:281.

[2]- م،ن، ص:283- بتصرف.

[3]- م، ن، ص:284-286 بتصرف.

[4]- م، ن، ص:284.

وَ نَادَيْتُ –إِنْ خَذَلُوا ثَوْرَتِي– مِـنَ القَادِسِيَّةِ أَنْصَـارِيَه.

وَ جَنَّدْتُ مِن خَالدِ بْنِ الوَلِيدِ وَ سَعْدُ بْنِ وِقَاصِ أَبْطَالِيَه.

لأنّ هذه المعاني (الاهتمام و الفخر) لا تتأتى بالترتيب العاديّ للجمل(ناديت أنصاري من القادسية– جندت أبطالي من خالد بن الوليد و سعد بن وقاص) وجاء التّقديم أيضا مراعاةً للإيقاع الموسيقيّ للقصيدة.

6) تقديم الجار و المجرور على الحال:

يتجلى هذا النوع في القصيدة في قول الشاعر:[1]

وَ بِالمالِ تُغْدِقُهُ الصَّدَقَاتُ مَضَتْ فِيْكِ بَائِعَةً شَارِيه

ف (بائعة) حال أولى، و (شارية) حال ثانية، و كلاهما تأخر عن شبه الجملة (فيك)، و ذلك رغبة من الشّاعر في تأكيده، وإلحاحه، و تحسره على المكان(فلسطين) الذي تفسره (في) و هي حرف جرّ دال على الظّرفية المكانية؛ و الأصل أنْ يقول: مضت بائعة شارية فيك. لكنه آثر التّقديم ليخلق تناسبا موسيقيا، زيادة على اهتمامه بالمقدّم.

2– تقديم الظرف و المضاف إليه:

قدّم الشّاعر الظرف و المضاف إليه في قوله:[2]

وَ أَضْحَى اِبْنُهُ بَيْنَ إِخْوَانِهِ يُلَقِبُهُ العَرَبُ بِالجَالِيَه

انزاح الشّاعر على الخطاب المألوف، و التّرتيب العاديّ لعناصر الجملة(و أضحى ابنه يلقبه العرب بالجالية بين إخوانه)؛ فقدّم الظرف و المضاف إليه (بين إخوانه) على خبر النّاسخ أضحى و هو الجملة الفعلية (يلقبه...) لاهتمامه بالمقدّم فهو يتحسر ويتأسّف على الأخوة الغائبة التي كانت وراء لقب الجالية.

استطاع شاعر الثّورة الجزائرية مفدي زكريا أنْ يرتدي ثوب الفرادة و التّميز، و يرصّع نصوصه بشاعريّة جماليّة راقيّة، بتنوع انزياحاته اللّغويّة دلاليًّا، أسلوبيًّا و تركيبيًّا، التي كسر فيها الحدود و الأنظمة و الدّلالات الوضعية للّغة، و خرق نسقها،و انتهك معياريتها، ففجر الطاقات اللّغوية، و وسّع دلالاتها، و ولّد أساليب و تراكيب لم تكن شائعةً من قبل؛ فجعل المتلقي يسبح في فضاءٍ لا محدودٍ من الإبداعات الفنّيّة و يتفنن في إدراك جمالياتها و مدلولاتها الهامشيّة.

قائمة المصادر و المراجع:

1– أسرار العربية: الأنباري أبي البركات ، تح محمد بهجت البيطار، دار الرقي، دط ، دمشق .

2– الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية: ويس محمد، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، سنة 2005م.

[1]- م، ن، ص: 280.

[2]- م، ن، ص:279.

3- بنية اللغة الشعرية :كوهن جان ، ترجمة محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال، ط1، المغرب ، سنة 1986م.

4- تسهيل الفوائد و تكميل المقاصد: ابن مالك محمد جمال الدين ، المطبعة الميرية، السعودية،1319هـ.

5- دلائل الإعجاز: الجرجاني عبد القاهر، المكتبة العصرية، دط، بيروت، 2003م.

6- شرح الأشموني على ألفية ابن مالك،تح محمد محي الدين: الأشموني، دار الكتاب العربي، بيروت، سنة 1955م، ج1.

7- شرح ابن عقيل: ابن عقيل بهاء الدين، دار التراث، ط 20، القاهرة، سنة 1980م، ج 2.

8- شرح اللمحة البدرية: هادي نهر ، دار اليازوري، عمان، 2007م، ج2.

9- شرح ابن الناظم على ألفية ابن مالك: ابن الناظم بدر الدين بن مالك، تح محمد باسل، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت ، 2000م.

10- الفوائد الضيائية: الجامي عبد الرحمن، مكتبة البشرى، ط1، باكستان ، 2011م.

11-الكواكب الدرية: محمد بن أحمد بن عبد الباري الأهدل ، مؤسسة الكتب الثقافية، ط1، بيروت ، 1990م، ج1.

12-لغة الشعر دراسة في الضرورة الشعرية: حماسة محمد عبد اللطيف: ،دار الشروق ،بيروت،1996م.

13- اللغة و بناء الشعر: حماسة محمد عبد اللطيف: ، مكتبة الزهراء، ط1، القاهرة، مصر ، 1992م.

14- اللهب المقدس: ابن تومرت مفدي زكرياء ،موفم للنشر، الجزائر ،سنة 2007م.

15- متن القطر: الأنصاري بن هشام، تص أبو الحسن باوزير، دار الوطن، ط1، الرياض ، سنة 1999م.

16-معاني النحو: السامرائي فاضل صالح ، دار الفكر، ط1، عمان ، 2000م، ج1.

17- النحو الوافي: عباس حسن, دار المعارف، ط3، مصر ، 1974م، ج1.

البريد الإلكتروني للمؤلف المرسل:

hamed.nawal@yahoo.com